المرحلية اللغوية قراءة تاريخية مقارنة
في نشوء اللغات وموتها

إعداد

د. آمنة بنت صالح الزغبي

أستاذة مساعدة – الجامعة الهاشمية

الأردن – الزرقاء

ملخص البحث

تفيد هذه الدراسة من معطيات المنهج التاريخي في دراسة اللغات من أجل الوصول إلى رصد موثق لمبدأ نشوء اللغات وارتقائها ومن ثم موتها، ومن الواضح لدينا أن اللغة عندما تنشأ أو ترتقي فإنها تتبع خطى أصحابها الذين يتكلمون بها. كما أن موتها لا يتم بصورة فجائية، بل إن موتها يتدرج بصورة لا تكاد تكون ملموسة، فهي قبل أن تموت تمر في نفق أطلقنا عليه في دراستنا هذه مصطلح المرحلية اللغوية، وهو مصطلح يعنى بما يقارب مصطلح البرزخية، وهو مصطلح نراه أكثر دقة في التعبير من المصطلح الآخر المعبر به عن هذه الظاهرة وهو مصطلح اللغة المرحلية(**Internal Language**)، وفي سبيل هذه الغاية قسمت البحث إلى تمهيد عرضت فيه مفهوم المرحلية اللغوية، وثلاثة أقسام، جعلت الأول حديثاً عن حالة المرحلية التي دخلت فيها اللغة الكنعانية عندما بدأت الآرامية تتغلغل في مناطق سيطرتها، والقسم الثاني عن حالة المرحلية اللغوية التي دخلت فيها اللغة الآرامية عندما تغلبت عليها اللغة العربية قبيل ظهور الإسلام بقليل، وأما القسم الثالث، فقد خصصناه للحديث عن المرحلية التي تمر بها اللغة العربية في مواجهة العولمة ومؤسساتها المسيطرة.

التمهيد: **مدخل نظري** :

تتعرض اللغات عبر عمرها لكثير مــن العوامــل الــتي تــساهم في تطــور اللغــة وتغيرها، ولا يشترط أن نحكم على هذا التغيُّر بأنــه تغــير يــسهم في التطــور الإيجــابي أو السلبي لهذه اللغة، ولكنه تحرك لغوي تاريخي قد يساهم في انتــشار اللغــة وتوســعها، وقــد يؤول بها إلى الاندثار، ذلك بأنَّ اللغة كائن حيٌّ، فهي تحيــا علــى ألــسنة النــاطقين بهــا، وتنمو عليها، فإذا مات الناطقون بها فإنها تموت بموتهم أيضاً.

إنَّ هذا الحكم المصوغ بلغة أدبية ينــسحب علــى جميــع اللغــات الإنــسانيّة في أثناء نموِّها وارتقائها وتعرُّضها للاندثار، فعندما يضعف أبنــاء الأمــة، فــإن لغتــهم تــصبح عرضة للاندثار والتحلل، ولا يمكن أن يظل مكانها فراغــاً، إذ لا بــدَّ مــن وجــود وســيلة من وسائل التواصل بين أفراد المجموعة البشرية الــتي تتفاعــل علــى تلــك الرقعــة الــتي كانوا يتفاعلون عليها، ولا ريب في أنَّ تلك الوسيلة وســيلة لغويــة، فهــم بحاجــة إليهــا للتواصل وللتعبير عن حاجاتهم مهما صغرت، وهذا الأمــر يفــضي إلى القــول إن انــدثار اللغات بعد أن يفنى أصحابها لا يكون مباغتاً وسريعاً؛ لأن مــوتهم نفــسه لــيس مباغتــاً أو سريعاً إلا في حالات محدودة سببها اعتداء خارجي علــى أهــل لغــة معينــة ذات مــساحة محدودة كما حدث مع اللغة الأوغاريتيــة الــتي تعرضــت لهجــوم مــن البحــر في عــام ١٢٦٠ ق.م تقريباً مما أدَّى إلى إحراقها بصورة كاملــة، ثمَّ حُــمَّ عليهــا القــضاء نهائيــاً في عام ١٢٠٠ ق.م بالزلزال الذي نعرفه، مما أهلك هذه اللغــة الــتي ملكــت أدبــاً راقيــاً، لعله الأرقى في الآداب السامية، إذا مــا أضــيف إلى الآداب الأكاديــة في بــلاد مــا بــين النهرين.

ونحن في هــذه الدراســة لا نهــتم بــالموت المباغــت للغــات كالــذي حــدث للأوغاريتية، ولكننا نهتم بالموت التدريجي للغــات، فعنــدما تــشيخ اللغــة وتبــدأ بــالموت الذي ربما تمَّ ببطء، فإنَّ لغــة أخــرى تبــدأ بــالبروز والتغلغــل في أمــاكن نفــوذ اللغــة

الأصلية، وتبدأ تفرض سلطانها عليها بصورة قد تكون تلقائية عفوية، وقد تكون واعية قصدية مقننة (في حالة الإحلال العدواني)، وعندما يكون الأمر قد آل إلى هذا المآل، فإنَّ أبناء اللغة الأصلية الذين يعيشون متاخمين للغة الجديدة الفتية يبدءون بالتأثر بها، مما يؤدِّي إلى تشكُّل مستوى لغوي جديد يأخذ من اللغة الأصلية بعض الملامح ويطعِّمها بكثير من مظاهر اللغة الجديدة، أي أنَّ ملامح اللغتين تكون واضحة في هذا المستوى الحادث، وقد يمكن الحكم على حجم التأثير في المستوى اللغويّ الجديد من خلال المعجم اللغويّ له أو من خلال المستوى النحوي (التركيبي) الذي يعدُّ من أخطر المستويات اللغويّة على الإطلاق؛ لأنه متى أصيب بالخلل، فإنَّ هذا يعني أنَّ اللغة نفسها مرشحة لتغير حاد قد يفضي إلى ميلاد لغة جديدة، وهو أمر قد لا يكون مهمًّا في اللغات التي لا تحتفل بتراثها أو بنصوص مقدّسة فيها، ولكنه أمر شديد الخطورة في حالة وجود الإرث الحضاري أو النصوص الدينية.

ويمكن الاستنتاج أنَّ اللغة الجديدة المسيطرة ستكون ذات نفوذ تدريجي، يبدأ في الغالب في المناطق ذات الصلة بها قوياً، ثُمَّ يبدأ بالتوغل التدريجي في المناطق القريبة، وقد يحدث أن يزيد إلى درجة قد تبدو معها اللغة الأصلية باهتة الملامح.

وهذه المرحلة التي تختلط فيها اللغتان وتتشكل نتيجة لها (اللغة) الجديدة هي ما أطلقنا عليه مصطلح المرحلية اللغويّة؛ لأنَّ اللغة تكون قد وصلت إلى مرحلية لا يمكن معها الحكم على انتمائها بصورة واضحة، إذْ تكون أخذت من هذه اللغة شيئاً يمكِّن الدارسين عاطفياً من تأصيلها في لغتهم، ويمكِّن الطرف الآخر من تأصيلها في فصيلة أخرى أو في مجموعة لغوية أخرى.

ومن خلال المنهج التاريخي الذي يمكننا من رصد مثل هذه الظاهرة بصورة واضحة، يمكن الإشارة إلى عدد ليس هيناً من هذا الملمح، فمن ذلك ما حدث بين الأكادية واللغات السومرية التي كانت سائدة في بلاد ما بين النهرين عندما سيطرت

الأكادية على الاستعمال اللغويّ الذي كان مقتصراً على السومرية، وتلك المراحل التي مرت بها الكنعانية بعد انحسار نفوذها لصالح اللغة الآرامية في سورية، ثُمَّ المرحلة التي تمثِّل انحسار اللغة الآرامية عن منطقة نفوذها لصالح اللغة العربية الفتية آنذاك، مما ولد لغة تحمل من ملامح الآرامية شيئاً ومن ملامح العربية شيئاً آخر، ونعني بذلك (اللغة) النبطية.

وأما اليوم فإنَّ الحقيقة التي يبدو أنّ العربية تُمرُّ بها هي المرحلية اللغويّة الخطيرة إن جاز التعبير، فقد بدأت تتشكَّل مستوياتٌ لغويةٌ جديدةٌ، ولكنَّها ليست خليطاً من لغاتٍ تنتمي إلى الفصيلة نفسها (الفصيلة المسماة: الساميّة) بل إنها خليط من العربية التي نخشى أنَّ نجمها آخذ في الأفول، واللغات الأوروبية، وعلى رأسِهَا الإنجليزية، لغة عصر العولمة وثورة المعلومات.

وستعرض الدراسة أنماطاً من التغيُّر اللغويّ والاختلاط الاستعمالي الذي حدث بين هذه اللغات؛ لبيان ما أطلقنا عليه مصطلح المرحلية اللغوية، من أجل إثبات أن هذه اللغات في تلك المراحل قد لا تحتمل مصطلح لغة أصلية بقدر ما تحمل معنى (لغة مرحلية) "**Intralanguage**" ولعلَّ هذا المصطلح الأخير يوضح معنى المرحلية توضيحاً قد يكون أقرب إلى المراد، وإن كان يحمل نوعاً من العمومية حاولت الدراسة أن تتجنبه عن طريق استعارة هذا المصطلح من مصطلحات علم اللغة التاريخي.

وفيما يلي نظرات على بعض مظاهر الاختلاط التي شكَّلت بعض ما أطلقنا عليه البرزخية:

١- المرحلية اللغوية في المرحلة الواقعة بين اللغة الكنعانية واللغة الآرامية:

نزحت بعض القبائل الآرامية إلى بلاد سورية وفلسطين في حدود القرن الخامس عشر قبل الميلاد، واستقرُّوا في مناطق مجاورة لمناطق نفوذ الكنعانيين الذين سبقوهم في الهجرة إلى هذا القسم بنحو عشرة قرون[1]، وتبعاً لهذا التماسّ الذي

حدث بينهم، فقد اشتبكت لغتهم مع اللغات الأخرى للسكان الأصليين، وآلت الأمور إليها وفقاً لقوانين الصراع اللغويّ، وإن كانوا انتفعوا بحضارة جيرانهم الكنعانيين انتفاعاً كبيراً(٢)، وهو ما حدث لهذه اللغة مع اللغة الأكادية أيضاً(٣).

وقد خلّف الصراع بين الآرامية والكنعانية كثيراً من الأنماط اللغويّة التي تشي بالمرحلية اللغوية، أو بالبرزخية اللغوية التي نتحدَّث عنها، وإن كانت النقوش التي عثر عليها حتى الآن من مرحلة الصراع بين اللغتين غير كافية لرسم ملامح اللغة المرحلية التي تشكّلت بفعل الصراع بين هاتين اللغتين، ولكن النقوش الموجودة تشير صراحة إلى وجود تداخل ليس هيناً بين بعض الملامح اللغويّة مما أدَّى إلى عدم وضوح القواعد اللغويّة فيهما، فصارت الكنعانية تحمل كثيراً من الملامح الصوتية التي تميز الآرامية، بعد أن أطلقت على القبائل الآرامية التي كانت همجية بعض الشيء في بداية احتكاكها بالكنعانيين المتمدّنين اسم (البعريين) أي أهل البعر **b<rrm** وذلك كما في نقش كلامو بر حيا(٤) الذي بدا كاتبه معتزاً بإنجازات لم يقوَ على الإتيان بها آباؤه وأجداده، ولكن اللغة بدت موشاة بلغة هؤلاء البعريين.

ومن المظاهر التي بدت ممثلة لما نحن بصدد الحديث عنه:

من المسلَّم به في دراساتنا التاريخيَّة للغات التي تسمَّى الساميَّة أنَّ كلَّ مجموعةٍ لغويةٍ قد نَحَتْ منحىً معيناً في التغيُّر الصوتيِّ، فقد تحوَّلت الذال إلى دال في المجموعة الآرامية، وفُقِدَ الصوتُ الأصليّ من المكوِّنات الصوتيَّة الأصليَّة لهذه المجموعة(٥)، كما سَجَّلَتْ العربية بعض الأمثلة على هذا النوع من التحرُّك الصوتيِّ، وأما المجموعة الكنعانيَّة، فقد اتَّجهت اتّجاهاً آخرَ في هذا التحوّل، وهو تحويل الذالِ إلى زاي، كما نَحَتْ إلى هذا المسار، اللغة الحبشية(٦)، واللهجات الحضريَّة الحديثة في بعضِ المدنِ العربيةِ، كمدنِ فلسطين المحتلة وبعض المدن في سوريّة، والقاهرة، وغيرها.

وهذا الحكم الذي سلَّمنا به يمثِّل الاتجاه العــامّ الــذي اتّجهــت إليــه اللغــات السامية، ولكن هذا لا يمنع من وجود تحولات تندُّ عنه، يعــود قــسم كــبير منــها إلى مــا أطلقنا عليه مصطلح المرحلية اللغوية الــتي نتحــدَّث عنــها هنــا، فمــن ذلــك مــثلاً أن الكنعانية حوَّلت صوت الذال إلى دال خلافــاً للــسمت العــام لهــا، مثــل **ndr** بمعــنى (نذر)، وقد جاء هذا الاســتعمال في نقــوش كنعانيــة مختلفــة[٧]، ومثلــه **hndr** وهــو المنذور[٨].

والمعروف أنَّ اللغة الكنعانية في تَوَجُّهِهَا العــامِّ قــد حوَّلــت صــوت الــذال إلى زاي، وكذلك سائر اللهجات المحمولة على الكنعانيــة كالعبريــة والمؤابيــة، ومــن الأمثلــة الكنعانية على هذا التحوُّل المطلق:

ـ **zbh** بمعنى ذبــح، و **mzbht** بمعــنى مــذَبِّحات[٩]، ومــن ذلــك أيــضاً الاستعمال: **zk**> بمعنى (ذكا)[١٠]، وقد تعرَّضت هــذه الكلمــة إلى التغيُّــر إلى الــزاي في العربية أيضاً، ولكن نوع الإبدال في العربية ظــلَّ في حــدود التغيُّــر المقيَّــد، في حــين وصل إلى مداه المطلق في المجموعة الكنعانية.

ومن ذلك أيضاً **zkr** بمعنى (ذاكرة)[١١]، و **zkrn**، أي: تذكير[١٢].

ومن ذلك أيضاً **zkn** بمعنى ذقن[١٣].

أي أن الذال في هــذه الأمثلــة، وغيرهــا كــثير، قــد تحوّلــت إلى زاي، وهــو الطريق العام الذي ســارت فيــه الكنعانيَّــةُ ولهجاتهــا، وأمــا تحــوُّل الــذالِ إلى دالٍ في الكنعانيَّة في النَّمَطِ السَّابق، فَيُحْمَلُ على أنّه تغيُّر تاريخيٌّ مقيَّــدٌ يمكــن إعادتــه إلى مرحلــة التماسّ الحاد الذي حدث بين الكنعانية والآرامية، وقد أسفر هــذا التمــاسُّ عــن انــدحار اللغة الأولى التي شاخت بشيخوخة أصحابها، لــصالحِ اللغــةِ الفتيَّــةِ الجديــدةِ، وإن كــان هذا لا يعني وجود أثر متبادل حدث بينهما في هذا المظهر بالــذات، ويــشهد علــى هــذا ما جاء في نقش بر ركب الآرامي من اســتعمالات تحــوَّلَ فيهــا صــوت الــذال إلى زاي،

وهي: zhb بمعنى (ذهب)[١٤]، و hzt< بمعنى (أخذت)[١٥]، znh وهو اسم إشارة[١٦] تحوَّلت الذال إلى زاي تأثراً بالكنعانية، في حين كان المتوقَّع أن تتحوَّل إلى الدال، كما هو حال المجموعة الآرامية[١٧].

ومن المظاهر التي تشير إلى المرحلية اللغوية في قضايا التحول الصوتي أنَّ الكنعانيَّة حوَّلَتْ صوتَ الظاءِ إلى صوتِ الصَّادِ، كما في الاستعمالات اللغوية الآتية:

– hsr، بمعنى (حظيرة)[١٨]، و y<s، بمعنى (وعظ)[١٩] وتحولت فيه الواو إلى الياء أيضاً، و nsr، بمعنى (نظر)[٢٠]، و sm>، بمعنى (عظم)[٢١]، وغيرها، وأمَّا أن تتحول الظاء إلى صاد في المجموعة الآرامية، فهذا من غير المألوف، بل المألوف فيها أن تتحوَّل إلى الطاء تحولا مطلقاً[٢٢]، ومع هذا، فقد جاء في أحد النقوش التي تمثّل مرحلة التماس مع الكنعانية وهو نقش (بر ركب) ما يشي بالتحول نحو الصاد اتّساعاً بالكنعانيَّة، فقد ورد فيه الاستعمال kys< بمعنى (قيظ)[٢٣].

وبعيداً عن التغيُّر الصوتيّ التاريخيّ الذي عرضنا بعض أمثلته المعبِّرة عمَّا نحن بصدد الحديث عنه، فإنَّه من المعروف أن الكنعانية لم تتَّخذ النهاية التي اتَّخذتها المجموعة الآرامية للدلالة على الاسمية، وهي الألف التي كانت دالَّةً في الأصلِ على التعريفِ، ثمَّ فَقَدَتْ فيما بعد هذه الدلالة، وأصبحت الصورة الأصلية العاديّة للاسم[٢٤]، ومع هذه الحقيقة المؤكَّدة، فإنَّ الكنعانية قد استعملت هذه النهاية، ولكن دون دلالة، ويمكن حمل هذا الاستعمال على المرحلية اللغوية، التي نتحدَّث عنها، فقد ورد في الجذر sm> السابق الذكر الاستعمال الكنعاني <sm> بمعنى عظم، وصورة الهمزة التي نراها في آخر هذه الكلمة ما هي إلا هذه العلامة.

ومثل هذا أيضاً الاستعمال zk< [٢٥]، من النقاء والطهارة، وصورة الهمزة فيها واضحة، وإن لم تكن دالَّةً على اسميةٍ أو تعريفٍ.

ومنه أيضاً الاستعمال البونيُّ الحديث <smn بالهمزة في آخره[٢٦]، وغيرها من الأمثلة.

إن المرحلة التي فصلت بين سيادة اللغة الآرامية في مناطق سوريَّة، وانحدار اللغة الكنعانية وموتها (ما عدا اللهجة الكنعانية التي استعارها اليهود من الموجودات الكنعانية الأخرى، والتي سميت اللغة العبرية) تحتاج إلى مزيد من الاستقصاء الذي يحتاج إلى دراسات كان الهدف منها لفت الانتباه إلى هذه الظاهرة التي يمكن أن تكون موضوعاً مهمًّاً في دراسة تاريخ اللغات وظواهرها.

٢- المرحلية اللغوية الواقعة في المرحلة الفاصلة بين اللغة الآرامية واللغة العربية:

ترى أغلب الدراسات الاستشراقيَّة أنَّ الأنباط ليسوا آراميين تماماً؛ لأنَّهم انتشروا في مناطق نفوذٍ عربيَّة، كما أنَّ لغتهم تشتملُ على عددٍ ليس هيناً من الألفاظِ العربيَّة، وكثيرٍ من الألفاظِ الدينيَّةِ المستعملة عندَ العرب[٢٧]، كما أنَّ أسماءَ الأعلامِ عندهم تكادُ تكونُ عربيَّةً، زيادةً على بعض السِّماتِ التي تتبدَّى لنا مستعملةً في اللغةِ النبطيَّةِ، وأمَّا الواقعُ الكتابيُّ الذي بتنا نعرفُهُ معرفةً تامَّةً، فإنَّه لا يفيدنا في الرَّبطِ بين اللغتين إلا بمقدار ما يؤكِّدُ أصالةَ النَّبطيَّةِ في الفصيلةِ الآراميَّةِ، فعددُ الحروفِ المعبِّرةِ عن الواقعِ الصوتيِّ المنطوقِ اثنانِ وعشرونَ حرفاً، وهو نفس العددِ الذي يمثِّلُ الآراميَّات عامَّةً، وأمَّا النِّظامُ الصوتيُّ العربيُّ، فهو يحتوي على ثمانيةٍ وعشرين صوتاً صحيحاً، عدا عن الأصوات الأخرى التي أخرجها النُّحاةُ العربُ من دائرةِ الأصواتِ الفصيحةِ أو أصوات من ترتضى عربيته، وفقاً لتعبير سيبويه[٢٨].

أمّا أوجُهُ التَّشابهِ مع اللغةِ العربيَّةِ، فهي ناتجةٌ فيما أرى عن أنَّ تلك المرحلة كانت مرحلة بسطت فيها العربيَّةُ نفوذَهَا على الآراميَّةِ، إلى أنْ تمكنت من استئصال شأفتها، ويبدو أنَّ ذلك تمّ بصورة نهائية بعد الفتح الإسلامي[٢٩]، عندما غدت كُلُّ الشعوبِ السَّاميَّةِ التي سبقت العرب في الاستقرار في بلاد الشام أثراً بعدَ عينٍ.

وفيما يلي بعض هذه المظاهر الاستعمالية التي تجعل من اللغةِ النبطيَّةِ لغةً تمثل ما أسميناه المرحلية اللغوية.

١- أسماء الأعلام :

حملت النبطية عددا كبيراً من أسماء الأعلام التي يمكن تمييز عروبتها، من مثل **>b >wsw** : أبو أوس[٣٠]، وتصغير (أوس) أي أويس **>wysw, >ysw**[٣١] علماً بأنَّ التَّصغير والكنى من خصائص اللغة العربية، ومنها أيضاً اسم **>bgr** أي أبجر[٣٢]، و **>dynt** أي أذينة، وهو اسم علم عربي، زيادة على أنَّه مصغَّر أيضاً[٣٣]، و **tym, tymw** أي خادم وعبد، وقد سُمي به[٣٤]، و **>b snwn** أي أبو سنان[٣٥]، و **zynb** وهو اسم علم مؤنث (زينب)[٣٦]، و **hlf>lhy** أي خلف الله[٣٧]، وغيرها كثير، ويمكن أن يُفَسَّر هذا التأثر بما يخدم توجه دعاة العروبيَّة الذين يطيب لهم أن تكون اللهجةُ النبطيَّةُ من الآرومة العربيَّة، كما يمكن أن يخدم الفكرة التي تحذِّر منها هذه الدراسة، وهي فكرةُ المرحليَّة اللغويَّة.

٢- لام التعريف

يميل دارسو اللغاتِ المسمَّاة الساميَّة، إلى الاعتقاد بأنَّ اللغةَ الساميَّةَ الأمَّ (المفترضة)،لم تكن تملكُ رمزاً أو أداةً للتعريفِ، وهُم في هذا إنَّما يستندونَ إلى خلوِّ الآشوريَّةِ والإثيوبيَّةِ من هذه العلامة، وأما أدواتُ التعريفِ في اللغاتِ الأخرى، فهي في العربيَّة (ألـ)، وفي العبريّة ولغات المجموعة الكنعانيَّة الأخرى (**ha**)، وهما في هاتين اللغتين سابقتان، وفي الآراميَّة (**a**) وهي لاحقة، وقد استعملت السريانيَّةُ هذه اللاحقةَ أيضاً، ولكنَّهَا فقدتْ القدرةَ على أداء دلالة التعريف فيها، وفي العربيّة الجنوبيّة (**n**)، وهي لاحقة أيضاً[٣٨].

وأمَّا اللغةُ النبطيَّةُ، فقــد تابعــت العربيــةَ في اســتعمالِ هــذه الأداة، وذلــك في بعض أمثلتها، مما دفع إلى الاعتقاد بعروبتها عند دُعاةِ هذه العروبــة، ومــن الأمثلــة علــى هذا الاستعمال:

- **>l>tr** بمعـــنى (الأثـــر)، و **>lkbrw** بمعـــنى (القـــبر)، و **>lhgrw** أي: الحجر (اسم مكـــان، و **>l<z>** أي (العـــزَّى)، و **>l>brsw** أي: الأبـــرش (المـــرقَّش)، و **>l>hrsw** أي: الأخـــرس، و **>lkynw** و **>lkyny** بمعـــنى (القـــين) أو العبـــد ، و **>lh** لفظ الجلالـــة (الله) تبـــارك وتعـــالى، و **>lt**، أي (الـــلات) الرَّبَّـــةُ العربيَّـــةُ في الجاهلية، و **>lb<ly**، وهو البعل[٣٩]، الإله المُتَمَيِّـــزُ باحترامـــه عنـــد الـــشعوب الـــسامية القديمة، ولعلَّ (هبل) من تجلياته عند العرب[٤٠].

ومع هذا، فإنَّ النبطيَّةَ انطلاقاً من تمثيلها مرحلة انتقالية بـــين الآراميـــة الـــتي أخـــذ نجمها بالأفول، والعربية التي بدأت تفـــرض ســـطوتها علـــى الواقـــع الاســـتعمالي الفعلـــي، استعملت أيضاً المعيار الآرامي في استعمال لاحقة (**a**)، وذلك مثل:

– **ywm>** بمعنى (يوم)[٤١]، وهي في السريانية **yawma**[٤٢].

– **ymyn>** بمعنى (يمـــين)، وهـــي في الـــسريانية **yammina**، وفي النبطيـــة أيضاً **khn>** أي: كـــاهن، و **kwz>**: (كـــوز)، و **kfr>** أي (كـــافر) حرفيـــاً، وهـــو المدفن، و **krk>** بمعنى (حظيرة أو بهـــو المـــدفن)، وهـــي في الـــسريانية **karka**، ومنـــها أيـــضاً **lbs>**، أي: لـــبس، و **mlk>** أي (ملـــك)، و **msgd>**، أي مـــسجـــد ، و**sryh>**، بمعنى (ضريح)، و **twr>**، أي ثور[٤٣]، وهي ملامـــح مـــن الآراميـــة لا شـــكَّ في ذلك عندنا.

٣– تاء التأنيث :

نقصد بها تاء التأنيث التي تلحق الأسمـــاء، وهـــي ظـــاهرة موجـــودة في مجموعـــة اللغات الساميَّة التي تَفْرُقُ ما بين المذكرِ والمؤنَّثِ في العـــادة، بالكلمـــة الأصـــلية المجـــردة،

كما تفرق بينهما عن طريقٍ لاحقــةٍ تتَّــصلُ بنهايــةِ الاســمِ المؤنَّــثِ، وفي كــلِّ اللغــات الساميَّةِ كلماتٌ كثيرةٌ مؤنَّثَةٌ بلا علامةِ تأنيثٍ، ولكنَّ هــذه اللغــات قــد بــدأت تــتخلَّصُ من هذه العلامة تدريجياً، وإن حافظــت عليهــا في بعــض المواضــع، غــير أنَّنــا نجــد أن الآشوريَّة والحبشيَّة (الجعزية أو الحبشية الكلاسكية) والعربيَّــة الــشماليَّة احتفظــت بهــذه العلامة بشكل لافت(٤٤).

وقد كانت أكثر اللغات السامية مــيلاً إلى الــتخلّص مــن تــاء التأنيــث تلــك اللغات التي تنتمي إلى الأرومة الآراميَّة، غير أن النبطيَّة قــد اســتعملتها لاحقــةً كالعربيَّــة، وفي أسماء تكاد تحمل السَّمْتَ العربيَّ نَفْــسَهُ، وربَّمــا كــان هــذا الاســتعمال ناتجــاً عــن ضعف الصلة باللغة الأصلية، ومتأثراً باللغة العربيَّةِ الــتي بــدأت تفــرض أنظمتــها علــى اللغة النبطيَّة.

ومن الأمثلة على استعمالها عندهم:

- **wsykt** بمعــــنى (وشــــيكة) (٤٥) و**wrtt** أي: ورطـــــة(٤٦)، و **wtykt** بمعنى وثيقة(٤٧)، و **dbylt** وهو اسم علم يقابله من العربيــة اســم (ذبيلــة) بالــذال(٤٨)، و **skynt** أي سكينة(٤٩).

ولكن هذا لا يمنع من أن تكونَ النبطيَّة قد أظهــرت كــثيراً مــن الأمثلــة الــتي بدت السمة الآراميَّةُ واضحةً فيها، فمن ذلك مثلاً:

- <**lg**> أي (علجة) حرفياً، وهي المــرأة الأعجميــة، ومذكرهـــا علـــج(٥٠)، و <**lm**> وهي الجارية أو الخادمــة الفتيــة (غلامــة حرفيــاً) (٥١)، و<>**tr** أي (ترعــة) وهي الشقُّ في الأرض(٥٢).

- كما بدت فيها الواو الدالة على الإمالةِ الواويَّــةِ الــتي مــن الممكــن القــول فيها إنها ناتجة عن تطور في نطق العلامة السَّابقةِ، كمــا في كلمــة **kbw**> بــالواو المديَّــة الممالةِ في آخرها، ويقابلها في العربية اسم (عقبة) (٥٣).

ونذكر في هذا المقام صيغةً شبيهةً بهذه الصيغة في العربيَّة، ولكنَّ العلماءَ العربَ القدامى وأغلبَ المحدثين، لم يفطنوا إليها، وهي صيغة اتّخذت الصبغةَ الكتابيَّة، لأنَّ العربَ عاملوها على هذا الأساس، ونعني بها اسم (عمرو)، فقد قرَّرَ العربُ أنَّ الواو في آخر هذا الاسم جاءت للتفرقة بين (عَمْرو) و(عُمَر)، والحق أنَّهم لو أرادوا أن يفرقوا بين الأسماء المتشابهة في الأصولِ الصامتيَّةِ، لاحتاجوا إلى كثير من العلامات الفارقة الشبيهة بهذا الأمر، ولكن عدم وجود المعرفة الكافية باللغات الساميَّةِ وأنظمتها الكتابة والصوتية، ومنها النبطية جعلهم يلتفتونَ هذه الالتفاتةَ غير الموفّقة من الناحية العلمية، وقد جاء هذا الاسم في بعض النقوش القديمة بالياء (عمري)، وهو نقشُ أمِّ الجمال الثاني الذي جاء نصُّه على النَّحو الآتي:

الله غفرا لألية

بن عبيدة كاتب

العبيد أعلى بني

عمري تنبه عليه من

يقرؤه(٥٤).

فقد جاء اسم (عمري) في السطر الرابع من النقش، مجروراً بالياء؛ مما يشي بوجود أمرٍ بعيدٍ عن التفرقة الكتابية في التعليل السابق الذي نرى أنَّه يفتقر إلى التماسك.

والظواهرُ المشتركةُ مع العربيَّة كثيرةٌ تثبتُ أنَّ اللغةَ النبطيَّةَ برمَّتها لغة تمثِّلُ المرحليَّةَ اللغوية التي تتحدَّثُ هذه الدراسة عنها، فقد رأينا أنَّها حملت من سمات اللغة الأم (الآرامية) كثيراً من السمات، غير أن العربية قد فرضت عليها كثيراً من السمات التي بدت معها كما لو أنَّها بداية لعروبتها.

٤– العربية والمرحلية اللغوية في العصر الحديث :

إنَّ هذا الذي ذكرناه عن المرحلية في حلقات اللغات السامية المختلفة، ينطبق على اللغة العربية في العصر الحديث، فقد مرّت تلك اللغات بفعل تآكل الدور الحضاري الذي مثّله أصحابها، فقد انتهى دور الكنعانيين الفاعل من الحياة الحضارية، ولم يعودوا أصحاب مشروع لقيادة الإنسانية، فاضمحلت لغتهم بعد أن دخلت في المرحلية اللغوية التي تتحدَّث عنها هذه الدراسة، وحدث هذا مع اللغة الآرامية، وفي العصر الحديث، بدا العرب، وهم أصحاب تجربة حضارية يمكن تكرارها في قيادة البشرية كما لو أنَّهم تخلوا عن هذا الدور، وبدأت هجمات المؤسسات الاستعمارية بتفتيت الأوعية الحضارية للأمة العربية، وأهمّها الدين واللغة، مما دفع تحت وطأة هذه الهجمات إلى ما يمكن أن يكون دخول اللغة العربية ما نسمِّيه المرحلية اللغوية، بعد أن بدأت لغة (من خارج المنظومة هذه المرة) تفرض سطوها على العربية.

إنَّ الحديث عن هذه النقطة لا يمكن أنْ يكون بالدّقة نفسها فيما لو أننا رصدنا التحولات، وإن كان هذا يقتضي الانتظار والتريث ريثما يتمُّ حصر ما يمكننا من القول إنَّ العربية تسير في نفق البرزخية التي وصلت إليها العربية تحت وطأة الهجمة القوية التي تعرَّضت لها من مؤسسات العولمة المختلفة، ولكننا نذكر أنَّ هذا البحث القصير قد جاء في أعقاب دراسة موسعة أخرى سينشر في مجلة جامعة دمشق للآداب والإنسانيات، رصدنا فيها التحولات التي طرأت على اللغة العربية في العقدين الأخيرين من المرحلة التي سبقت إعلان المؤسسة عن نفسها، ولكننا مع ذلك سنبحث بعض القضايا التي تعني وجود العربية على خارطة اللغات الحية، ومنها: موقع العربية على شبكة المعلومات، ومظاهر ضعف اللغة العربية في مواجهة اللغات الأخرى ولا سيما اللغة الإنجليزية، واللغة العربية ووعي أبنائها بالهجمة المفروضة

عليها، وبعض ملامح انحسار الدفاع عن العربية، وما يمكن أن يسمى تساؤلاً عن الحل طرحته الباحثة على صفحات الدراسة.

وأما ما نقصده بالبرزخية التي دخلت فيها العربية، فهو أنَّ العربية بسبب من ضعف الناطقين بها الآن قد دخلت في ما يشبه نفق االمرحلية اللغوية الذي تتحدَّث عنه الدراسة، وذلك في الصراع المفروض عليها من اللغات التي تسيطر على المشهد الحضاري الذي يكتنف البشرية، ولا سيما في تأثرها باللغة الإنجليزية التي تُعَدُّ اللغة الأولى التي تسيطر على ما يسمى لغة المعلوماتية أو عصر الإنفوميديا وثورة المعلومات.

وقد أفادت الدراسة من بعض ما نُشِرَ على شبكة الانترنت من دراسات حول العولمة واللغة، ولا سيما ما كتبة يحيى عابنة، ونشر على صفحات موقع جريدة الوطن القطرية، فيما يخصّ استهداف منظومة مؤسسات العولمة اللغة العربية(٥٥).

موقع اللغة العربية على شبكة المعلومات :

وأمَّا عن موقعِ العَربيَّةِ على شبكة الإنترنت، وهو موقعٌ ينبغي ألا يغيبَ عن اهتمامِ أولي الأمرِ لخطورته، لا سيّما أننا أمامَ ثورةٍ معلوماتيَّة بكلِّ ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، فقد وصفه أحد المهتمين بمواقع اللغة العربيَّة على هذه الشبكة وهو شاكر لعيبي بأنَّه يشير إلى انحسار اللغة العربيَّةِ وموتِها البطيء؛ لأنّ المشرفين على هذه المواقع تتملَّكهم الحيرةُ، ويتخبّطون وهم يواجهون مشكلةَ تعريبِ المصطلحاتِ والمفرداتِ حتى مع افتراض معرفتهم لمعانيها، وهم يكتفون بكتابةِ المصطلحاتِ المستعملةِ في الإنجليزيَّة بحروفٍ عربيَّة، كما في: الجافا سكربت، موبايل إيجبت، ووتشات رووم أغاني وسكربتات للتشات، وقد دعت هذه العبارات والكلمات كاتب المقال إلى أن يتساءل: ألغةٌ هذهِ أمْ نحن أمامَ لغة أخرى لا نعرفها؟(٥٦)

كما توقف السيد شاكر لعيبي أمام الضعف اللغويّ المطبق الذي تعاني منه تلك المواقع، وعدم السيطرة على اللغة الأمِّ (العربيَّة)، بل إنَّ المتعلِّمَ البسيطَ لا يقع في مثل أخطاء القائمين عليها، زيادة على استعمالهم للعاميات المحلية، وعدم الإلمام بأيسر قواعدِ الإملاءِ، وقد ذكر أمثلةً على هذه الأخطاء تشير إلى المهزلة اللغويّة التي تقوم عليها مواقع أشار إليها بأسمائها على هذه الشبكة، محيلاً السببَ في هذا، إلى ما أطلق عليه (غيبوبة وعي الموظف بتاريخ اللغة العربية وسياقات الترجمة، وعدم اطلاعه على أي كتاب يتعلق بالثقافة العامة)، وقد أورد أمثلة على التدهور الخطير للغة العربيَّة عندهم ودورهم التدميري، منطلقاً منها إلى الربط بين محاولاتهم البائسة وتلك الأفكار التي دعا إليها لويس عوض وسعيد عقل، وهو يقصد بذلك الدعوة إلى التخلُّصِ من العربيَّة الفصحى، واستعمال اللهجات المحلية العاميَّةِ التي اشتهرت عن هذين الشخصين(٥٧).

مظاهر ضعف اللغة العربية في مواجهة اللغات الأخرى :

نحن هنا لا نتحدّث عن التطور الطبيعي للغات، فهذا التطوّر يخضع لقوانين معروفة، بل يمكن التنبؤ بآثاره في أغلب الأحيان، ولكنَّ موضوعنا هو أنَّ اللغةَ العربيَّة قد باتت عرضةً لآثارِ اللغةِ الإنجليزيَّةِ وغيرها من اللغات التي يعتدّ بها في بروز ما يسمى ثورة المعلومات، أو المعلوماتية، ولعلَّ أخطرها على اللغة العربية هي اللغة الإنجليزية؛ لما يتمتع به أصحابها من مظاهر القوّة المادية، ولما هو مبرمج عندهم من هجمات قوية لتحطيم اللغات الأخرى، والانتقال بها من لغات للعلم والمعرفة والمعلوماتيَّة، إلى لغاتٍ محليَّة محدودةِ الاستعمالِ، ويكتفى باستعمالها في المجالس التي لا يعنى بها غير العجائز، وفي أحسن الأحوال، قد تكون مادةً مسبوكةً وعباراتٍ مسكوكةً تُسْتَعْمَلُ في المعابدِ، كما هو الحال في اللغةِ السِّريانيَّة التي أصبحت لغةً ثانويَّةً عند أصحابها في مناطق متفرقة من سورية والعراق، كما أنها أصبحت عبارة عن (كاسيتات) تباع للسُّوَّاح مسجَّلٍ عليها قُدَّاسٌ دينيٌّ لا غير.

والحقيقة أن هذه الهجمةَ المبرمجةَ لم تكن جديدةً بأيِّ حال، فقد بدأت في زمن الاستعمار الأوروبي التقليدي، والنظام العالمي القديم الذي اهترأ أمام النظام العالمي الجديد الذي تقوده الدول الأكثر قسوة في تاريخ البشرية، وهذا الأمر الذي نذكره، لم يكن وليد يوم وليلة، بل كان أثره تدريجياً بطيئاً، كما هو الحال في ظهورِ العولمةِ نفسِهَا، ويمكن أن نتلمّس طريقنا في تحديد آثاره عبر المستوى التركيبي للغة وليس عبر المستويات الأخرى، وهو المستوى الذي فطن إليه علماء العربية القدامى، فراحوا يؤلفون فيه كتباً وُسِمَ أكثرُها باسم "لحن العامّة".

وأما في العصر الحديث فقد كانت المحاولات التي بُذِلَتْ للحفاظ على المستوى النحوي للغة العربية لا تتَّسمُ بالرسميَّة إلا بصورة محدودة، بل كانت السَّمَةُ الفرديَّة غالبةً عليها، ولذا فلم نفطن إلا وقد تشكَّلَ مستوى لغويٌّ بديلٌ عن المستوى الفصيح، والخطورة في نشوء هذا المستوى تتمثَّلُ في أنه يحتوي على قواعد جديدة للغة، وأنّه يتوسع وينتشر بسرعة، بفعل سطوة عصر المعلومات والإنترنت، وهي أمور جديدة على المتعلمين العرب، زيادة على عدم وجود برامج قومية مقننة للحفاظ على هذا المستوى، واختيار القائمين على برامج المقاومة التي تواجه هذه الهجمات الضارية من غير المعنيين بالهموم الثقافية أو المحترفين في الممارسة اللغويّة.

اللغة ووعي المثقفين العرب بالهجمة عليها

ليس من شكٍّ في أنَّ المثقفين العربَ قد انقسموا على أنفسهم بعد عام ١٩٩١، فقد وقع قسم كبير منهم تحت وطأة أملٍ كبيرٍ يتعلَّق بما يسمّى الشرعية الدولية، إذْ ظنَّ أنَّ هذه الشرعية هي التي تفرض نفسها وإرادتها في حل النزاعات الدولية ولو بالقوة إن لزم الأمر، ولعلَّهم لم يلفتوا إلى أهداف المؤسسات الأخرى التي تعمل على استلاب الأوعية الحضارية للأمم الأخرى، وأخطرها المؤسسة اللغويّة التي تعدُّ الوعاء الحضاري للشعوب.

وقد اهتمّ الفكر العربي بعد هذا برصد تـأثيرات النظـام الـدولي الجديـد علـى العالم العربي بما يخصّ السياسيين والأنظمة الاقتـصادية حـسب، وأمـا اهتمـامهم بآثـاره الأخرى، فقد كان اهتماماً شكليًّا على الأغلب، فبعيـداً عـن الدراسـات الـتي اهتمَّـت بالأبعاد العسكرية والاقتصادية والسياسية، فإنَّ اهتمـامَ المـثقفين العـرب بخطـر الهجمـة على اللغة العربيَّة، ظلَّ محدوداً لا يكاد يذكر، فهم وإن أدركـوا أنَّ الأمـة قـد وقعـت في مجموعة من الأشراك التي فرضها عليهم النظـام الـدوليُّ الجديـد، ولكنـهم اعتقـدوا أنَّ اللغة العربية ستظلّ بمنأى عن الخطـر، ولا سـيما أنَّ كـثيراً منـهم مـا زالـت مـشاعر الانتشاء تتملكه بسبب إدخال اللغة العربيـة لغـة عالميـة في أروقـة الأمـم المتحـدة، إذ يستطيع مندوبو الدول العربية اعتماد لغتـهم (القوميـة) في اجتماعـات الأمـم المتّحـدة، معتقدين بذلك أنَّها أصبحت متساوية مع الإنجليزيـة والفرنـسية، وقـد نـسيت ذاكرتنـا أنه ما من أحد يسمع العرب حتى لو تكلموا الإنجليزيَّةَ نَفْسَهَا.

من ملامح انحسار الدفاع عن العربية

لقد توقف علماء اللغة العربية عن الدفاع عـن لغتـهم وأصـالتها، وأركنـوا إلى تطبيق النظريات الغربية على اللغة العربية دون أن يفطنـوا إلى تكـوين مـشروع متكامـل لدراسة لغتهم، وهم بهذا يتوزعون على فئـات، بعـضها يـربط العربيـة وحفظهـا مـن التحلل والاندثار بمؤثرات غيبية، انطلاقاً من قولِ الحقِّ تبـارك وتعـالى: "إِنَّـا نَحْـنُ نزَّلْنَـا الذِّكْرَ وإنَّا له لحافظون" [الحجر٩]، فلما كان الـذِّكْرُ قـد نـزل بالعربيَّـة، والله وعـدنا بحفْظه، فإنَّ اللغةَ العربيَّةَ محفوظةٌ بهذا الوعد الإلهيِّ.

وبعض العلمـاء يـرون أنّ العربيـة قـد شـاركت اللغـةَ الكونيَّـةَ الكـبرى (الإنجليزية) في أنَّها لغة للكومبيوتر والإنترنت وعـصر ثـورة الإنفوميـديا سـواء بـسواء، وهم بهذا الفهم الضحل الذي لا يبحـث الجـوهر، لم يفطنـوا إلى أنَّ اللغـة العربيـة قـد أخذت الدور الذي أخذه الناطقون بالعربية أنفسهم، وهـو دور العجـز والانطـواء، فمـا

استعمالُهَا في هذه المجالات إلا مظهرٌ من المظاهرِ الاستهلاكيَّة، فهي تشبه أيَّ مادة استهلاكية يستعملها العرب في حياهم اليومية فهل هي مادَّةٌ عربية؛ لأنَّهُ قد كتب على أغلفتها اسمها بحروف عربية؟

ومنهم من يرى أنَّ علماء اللغة العرب غير قادرين على الوقوف في وجه مدِّ اللغات الأخرى، ولا سيما اللغة الإنجليزية واللغات المسيطرة على المعلوماتية، وهم يرون أنّ ينحنوا مع اللغة العربية ريثما تمرّ العاصفة، والحقيقة أن موقف هذه اللغة ما هو إلا انتظار للموت فقط، فالعاصفة التي تمرُّ، ليست زوبعة عابرة، وإنما هي سلسلة من الأعاصير المدمِّرة التي لا نعتقد أنَّها ستنتهي إذا انحنينا، فهدفها هو اقتلاع جذور الأمة، ولهذا فهي هاجم مرجعياها وأوعيتها الثقافية بلا هوادة، ومن أهمها اللغة العربيَّة والدِّين الإسلامي، وهذه الفئة من المثقفين العرب لا تربط بين الهجمات العاتية التي تتعرض لها الأمة عسكرياً واقتصادياً واجتماعياً، وهذين المظهرين: اللغة والدين.

ولقد أغفلوا تبعاً لذلك، وبسبب عدم دعم الحكومات العربية لوجود مشروع قومي متكامل، ثورةَ المعلومات (المعلوماتية) واكتفوا ببعض الجهود الفردية التي لا يمكن أن تقدِّم شيئاً يذكر في مجال الصراع القائم بين العربية والنظام المهاجم "الأمر الذي جعل أفكارنا ومفاهيمنا عن الأشياء تتأثر إلى حدٍّ بعيد بالأحداث الجارية والتطورات المتلاحقة على امتداد هذا العالم"[٥٨].

ومن المفارقات التي نتجت عن انتهاء الحرب الباردة سقوط العامل الإيديولوجي الذي كان يحمي اللغةَ العربيَّةَ، كما كان يحمي كثيراً من اللغات الأخرى التي لا تتَّسِمُ بالعالميَّة، في مقابل بروز المحدد الثقافي، فقد برزت النزعةُ القوميَّةُ العربيَّةُ بفعل تأثيراتٍ جانبيَّةٍ لا مجال للحديث عنها هنا، ولكن سقوط النظام الماركسي اللينيني من واجهة القوى الكونيَّةِ الفاعلةِ، وسقوطِ النموذجِ الذي يبشِّر به، أدّى إلى انحسارِ عددٍ من الإديولوجيات، ومنها النزعةُ القوميّةُ العربيَّةُ التي عانت

من عدة لطمات بفعل تآمر النظام العالمي الجديد بعد ضرب العراق في عام ١٩٩١، وتلا ذلك تصدّع الصفَّ العربيّ، وانهياره أخيراً أمام قوة القطب الواحد التي لا تتسم بأي إيديولوجية، إلا فرض القوة(٥٩).

لقد عرض زايجموند باومن في الفصل الرابع من كتابه الموسوم بـ"العولمة، الآثار البشرية" رصداً للعواقب الثقافية للتحولات السياسية والاقتصادية في المجتمعات، مفترضاً أنّ التأثير العام هو التشعُّب والاستقطاب في التجربة البشرية مع رموزها الثقافية المشتركة التي تخدم تفسيرين متمايزين تماماً، ورصد في أثناء ذلك حالة التنقّل التي تكتنف حياة المرء –ومن ثّمَّ حياة الشعوب– في عصر العولمة، مشيراً إلى أن التنقُّل لا يعني بالضرورة التنقل داخل المكان بحدوده الفيزيائيَّة المعروفة، بل من الممكن أن يتنقّل الإنسانُ على شبكة المعلومات من موقع إلى آخر دون أن يتحرَّكَ من مكانه، فالإنسانُ الآن يعيشُ في دائرة غريبة مركزها كلّ مكان ومحيطها خارج المكان، وأمَّا فكرةُ السكونِ، فَتُفْهَمُ فقط في عالمٍ يبقى ثابتاً محدَّدَ العلامات، ولهذا فقد أطلق المؤلف على هذا الفصل اسم (السواح المشرَّدون)(٦٠).

وبناء على تحليل هذا الرأي، فإنّ اللغةَ العربيَّةَ ظلَّت ظاهريّاً تدور في مكانها، ولم يكن بمقدورها أن تجد لها مكاناً بين هذه اللغات التي سادت وتنقلت سائحة في عصر المعلوماتيَّة، دون اعتبار لطبيعة المكان بمعطياته الفيزيائية، وعلى الرغم من أنَّ مفهوم التنقُّلِ هذا ينسجم مع المظاهر الاقتصادية أكثر من غيرها من المظاهر، فإنَّ تعميمه على الحالة اللغويّة أمر محبَّذ لدينا، فقد تحوّلت اللغة العربية في مكانها أيضاً أمام اللغة الإنجليزية بالذات إلى ما يشبه المشرَّدين، في حين نجد أن اللغة الإنجليزية صارت سائحة تجذب المكان إليها، وانحسرت العربية وكثير من اللغات الأخرى، وتحوَّلت إلى مشرَّد، وحرّمت عليها مكانة السائح، أو البقاء في مكانها، فالضوء الأخضر الذي يسمح بالمسير في حالة الأمان، صار للغة السائحة، وأما العربيَّة، فهي واقفةٌ وراءَ

إشارةٍ حمراءَ معطَّلة لا يبدو مأمل في إصلاحها[٦١]، مما حوَّل اللغة إلى مستهلك فقط، وذلك لأنَّ الفرص المتاحة لسياحتها أصبحت لا تكاد تفي بحاجتها إلى البقاء مشرَّدة.

– وأما مظهر الخط، فقد لاقى عنتاً وهجوماً لا يقل ضراوة عن ذلك الذي لاقته المظاهر الأخرى، وقد وجد النظام العالمي الجديد ميراثا من النظام العالمي القديم الذي كان سائداً في القرن المنصرم يعادي هذا المظهر الحضاري الكبير، بما يمثّله من أهمية في حفظ التراث الإسلامي الهائل، وقد ارتكز في هذا الهجوم إلى محورين:

١- محاولة إثارة النعرات الإقليمية لاستعداء القوميات غير العربية التي تكتب لغاهّا بالخط العربي، كالأتراك والفرس والهنود والملايو وغيرهم، وقد استغلوا ضعف العرب وتهافتهم على التعامل مع الإنجليز خاصة، وإساءهّم إلى هذه القوميات، فحرضوهم على الثورة على كل ما يمتُّ إلى العرب بصلة، كالخطِّ العربيِّ، فنجح مصطفى كمال التركي في زحزحة التأثير الثقافي العربي عن الأتراك عندما تخلَّص من الخطِّ العربيِّ، وعمد إلى كتابة اللغة التركيَّة بالحرف اللاتيني، على الرغم من أنّ شكل الحرف أمرٌ غيرُ لغويٍّ، ولكنَّه من شؤون الثقافة[٦٢].

كما نجح هذا التوجّه في تغيير صورة الحرف في كل من ماليزيا وإندونيسيا، بسبب جهل القائمين على شؤون الثقافة في هذه البلاد بكارثة ضياع الأصول الثقافية التي ستؤدي إلى نشوء جيل منبتٍّ عن الثقافة التراثية لهذه الشعوب، والأمر اللافت للانتباه، هو أن العرب المتمسكين بهذا المظهر الحضاري (الخط) ثاروا كثيراً عندما باشر الأتراك في استعمال الخط اللاتيني في كتابة لغتهم، ولكنّ أمر استعماله في ماليزيا وإندونيسيا، مرَّ وكأنَّ شيئاً لم يكن، فلم يلقِ إليه أحدٌ بالاً.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تغلغل العربية في لغات الملايو واللغة الأوردية ولغات الشعوب التي دخلت في الإسلام واستعملت الخط العربي، دليلٌ على حيوية اللغة العربية في

التعامل مع اللغات الأخرى، تعاملا لا ينبني على الإعتداء على خصوصيات هذه اللغات، أو شخصيتها القومية، بل طلت لغات مستعملة، تحترمها العربية، ولا تحاول ابتزازها مكانتها القومية، بل سارت الأمور في هذا التعامل سيراً طبيعياً، علماً بأنَّ هذه اللغات لم تكن ذات تجربة حضارية بالدرجة التي تمثِّلها العربية، بل إنَّ التأثر كان متبادلا بين هذه اللغات واللغة العربية، كما هو ملاحظ في تأثر الأنماط الاستعمالية العربية بهذه اللغات، مما دفع بكثير من العلماء إلى وضع المصنَّفات في هذا التأثير، كما فعل الجواليقي، في كتابه (المعرّب)، والبشبيشي، في (جامع التعريب بالطريق القريب)، والسيوطي في (المهذب في ما وقع في القرآن الكريم من المعرب) وغيرهم، وهذا من وجهة نظر الدراسة، يضمن للغة الاستمرارية والثراء اللغوي.

وأما الفرس والهنود المسلمون، فلم تفلح معهم محاولات تغريب الخط، فظلوا محافظين على خطهم، وقد أجرت كوثر البشراوي من قناة الجزيرة القطرية، مقابلة مع السيد محمد إحصائي الفنان التشكيلي الإيراني في برنامج (إشراقات)، وقد أشار إلى أنَّ سبب الهجمة على الخط العربي، يعود إلى أنَّ هذا الخطّ، ولا سيما الثلث والرقعة لم يعد خطًّاً عاديًّاً، ولكنه اكتسب صفة قدسيّة، بمعنى أنَّ الشعوب المسلمة غير الناطقة بالعربية، إذا شاهدوا الخط العربي، فإنَّهم سينتقلون في ذواتهم إلى كلام الله، وهذا وفقاً لتعبيره، ينطبق على كل من لا يتكلّم العربية(٦٣).

٢- المحور الثاني الذي اهتم به الغرب في محاربتهم للخط العربي كان في عقر دار اللغة العربية نفسها، وقد استغلوا في سبيل تحقيق هذا الهدف بعض المروِّجين لفكرهم في بعض أمصار العالم العربي، ولكن هذا الاتجاه لم يجد إلا الازدراء لدى أوساط المثقفين الذين سخروا من الدعوة إلى إحلال الحرف بصورته اللاتينية محل الحرف العربي، ومن المفارقات أن الخط اللاتيني هو الآخر من إفرازات الخطوط التي يمكن وصفها بأنها خطوط عربية، ونعني به الخط الكنعاني الذي انتقلت صورته إلى اللاتينيين عبر الخط اليوناني، وقد فَصَّلَ أحد الباحثين الذكر في هذا التأصيل(٦٤).

هل يوجد حلّ؟

السؤال المطروح الآن: هل يمكن مواجهــة العولمــة مــن الناحيــة اللغويّــة علــى الأقل؟

هل يمكن المراهنة على عولمة بديلة؟

هل يمكن الخلاص مما دعاه بعض البــاحثين البــارعين الــذين يحــاولون مــوقفهم الفكري الرافض للقهر العالمي من الغرب أنفسهم الفخ؟[٦٥]

وهل يمكن الوقوف في بناء مواجه لهذه العولمة بعولمــة بديلــة قائمــة علــى الخــير الإسلامي حسب دعوة بعض البــاحثين المــسلمين؟[٦٦]. أو العوربــة كمــا دعاهــا محمــد المريسي في محاضرة ألقاها في جامعة مؤتة في عام ٢٠٠١ بكلية الآداب؟

إنَّ الإجابة عن هذا التساؤل ليــست في متنــاول اليــد حاليــاً وربمــا لا تكــون كذلك في المستقبل القريب، ولكنني أدعو جميع البــاحثين المخلــصين مــن أبنــاء الأمــة إلى ألا يركنوا إلى رؤى قد لا تقدِّم شيئاً مفيداً للغة، بل أن يعمل كــلٌّ وفــق قدراتــه لحمايــة العربية، فلعله من المفيد لنا أن نفعل هذا حتى نتمكَّن يوماً مــن التعــبير عــن مــساهمتنا في الحضارة الإنسانية بلغتنا العربية.

والله يهدي إلى الصواب

الهوامش والتعليقات

١- علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ص٥٦.

٢- المرجع السابق، ص٥٧.

٣- سامي سعيد الأحمد، المدخل إلى تاريخ اللغات الجزرية، ص٢٦.

٤- Kilamu Ins.14/8-9.

٥- آمنة الزعبي، التغيُّر التاريخي للأصوات في العربية واللغات السامية، ص ١٥٦.

٦- المرجع السابق، ص ١٧٠.

7- Skiroko Ins., 1/6, Rhodos(I), ½, Dali(II) Ins.: 5/6, Umm-elawamid Ins.: 1/5.

8- Dali (II) Ins., 5/2.

9- Yahumalik:11/12, Labithos:10/7.See also: Tomback, A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician & Punic Languages, P.94, Harris, A Grammar, of the Phoenician Languages, P. 98

10- Harris, A Grammar, of the Phoenician Language, P. 99, Slouszch, Otzar Hakkitobot Happiniqiyot, Thesaurus of Phoenician Inscriptions, P.373, Jean & Hoftijzer, (DISO), P.76, Tomback, A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician & Punic Languages, P. 94, Hoftijzer & Jongeling, Dictionary of the North-West Semitic Inscriptions, PP. 320-321

11-Harris, A Grammar, of the Phoenician Language, P. 99, Tomback, A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician & Punic Languages, P. 94, Jean & Hoftijzer, (DISO), P. 77, Hoftijzer & Jongeling, Dictionary of the North-West Semitic Inscriptions, PP. 321-326

12-Hoftijzer & Jongeling, Dictionary of the North-West Semitic Inscriptions, PP.326-327, Tomback, A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician & Punic Languages, P.99, Jean & Hoftijzer, (DISO), P. 78.

13- Tomback, A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician & Punic Languages, P. 59, Jean & Hoftijzer, (DISO), P. 59, Hoftijzer & Jongeling, Dictionary of the North-West Semitic Inscriptions, P. 339.

14- Bar Rakb Ins., 11/3

15- Bar Rakb Ins., 11/4

16- Bar Rakb Ins., 20/4.

١٧- كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص٤٩.

18- Tomback, A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician & Punic Languages, P.112, Jean & Hoftijzer, (DISO), P.95, Harris, A Grammar, of the Phoenician Language, P. 104.

19- Tomback, A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician & Punic Languages, 127, Jean & Hoftijzer, (DISO), P.110, Hoftijzer & Jongeling, Dictionary of the North-West Semitic Inscriptions, P.464

20-Tomback, A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician & Punic Languages, P. 221, Jean & Hoftijzer, (DISO), P.185, Harris, A Grammar, of the Phoenician Language, P. 125

21- Tomback, A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician & Punic Languages, P. 255, Jean & Hoftijzer, (DISO), P.226, Harris, A Grammar, of the Phoenician Language, P. 134

22- Moscati,S.(etal),An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages, P. 44.

23- Bar rakb Ins., 19/4.

٢٤ – رمضان عبد التواب، في قواعد الساميات، ص١٩٢.

25- Slouszch, Otzar, Hakkitobot Happiniqiyot, Thesaurus of Phoenician Inscriptions, P.373, Harris, A Grammar, of the Phoenician Language, P.99, Jean & Hoftijzer, (DISO), P. 76.

26- JA, Series11, vol.7 (1970)465, Tomback, A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician & Punic Languages, P.323.

٢٧– ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص١٣٤.

٢٨– سيبويه، الكتاب بتحقيق عبد السلام هارون، ٤٣٢/٤.

٢٩ – رمضان عبدالتواب، فصول في فقه العربية، ص٣٣.

30-Cantineua, J., Le Nabateens,Notions Generales- Ecritures Grammaire, 2/55.

31- Ibid, 2/58

32-Ibid, 2/55

33- Ibid, 1/44,47,48, 2/56.

34- Ibid, 2/155.

٣٥ – يحيى عبابنة، اللغة النبطية، ص١٠١.

36-Cantineua, J., Le Nabateens,Notions Generales- Ecritures Grammaire, 2/92.

37- Ibid, 2/96.

وانظر: يحيى عبابنة، اللغة النبطية، ص١٦٩.

٣٨ – كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص١٠٣.

39-Cantineua, J., Le Nabateens, Notions, Generales- Ecritures Grammaire, 2/61, 2/63,2/56,2/111,2/60, 2/73, 2/128…

٤٠- لطفي الخوري، معجم الأساطير، ١/١٣٦، وخزعل الماجدي، الآلهة الكنعانية، ص٧٦.

41- Cantineua, J., Le Nabateens,Notions Generales- Ecritures Grammaire, 2/103.

42-Brockelmann, Lexicon Syriacum, P. 299, Costaz, L., Syriac English Dictionary, P. 139, Payne Smith, A Compendious Syriac Dictionary, P. 190.

٤٣- يحيى عبابنة، اللغة النبطية، ص٩٤.

٤٤- كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص٩٥-٩٦، ورمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغويّ، ص ٢٥٦-٢٥٧.

45-Cantineua, J., Le Nabateens,Notions Generales- Ecritures Grammaire, 2/90.

46-Ibid, 2/90.

47-Moritz, Der Sinaikult in heidnischer Ziet,P. 16.

48-Cantineua, J., Le Nabateens, Notions Generales- Ecritures Grammaire, 2/80.

49-Ibid, 2/150.

50- Ibid, 2/130.

51-Ibid, 2/131.

52- Ibid, 2/158.

53- Ibid, 2/134.

٥٤ - رمزي البعلبكي، الكتابة العربية والسامية، ص١٥٦.

٥٥ – يحيى عبابنة، لماذا يستهدف الغرب لغة العرب، بحث منشور على شبكة الإنتر نت، موقع صحيفة الوطن.

٥٦– شاكر لعيبي: تهافت اللغة العربية على شبكة الإنترنت: مقال منشور على شبكة الإنترنت.

٥٧– شاكر لعيبي: المرجع السابق.

٥٨– عليّ الدين هلال: النظام الدولي الجديد، الواقع الراهن واحتمالات المستقبل، عالم الفكر، م٢٣، ع٣–٤، ١٩٩٥، ص١٣–١٤.

٥٩– ناصيف حتّي، أيّ هيكل للنظام الدولي الجديد؟ عالم الفكر، م ٢٣، ع٣–٤، ص١٠٦.

٦٠– زايجموند باومن، العولمة، الآثار البشرية، عرض وتقديم شفيقة مستكي، عالم الفكر، م ٢٨، ع٣، ٢٠٠٠، ص٢٥٨.

٦١– المرجع السابق، ص٢٥٩.

٦٢– طالب عبدالرحمن، نحو تقويم جديد للكتابة العربية، كتاب الأمة، ع٦٩، ١٩٩٩، ص١٣٤–١٣٦.

٦٣– كوثر البشراوي، برنامج إشراقات، منشور على موقع الجزيرة، على شبكة الإنترنت.

٦٤– يحيى عبابنة، التطور السيميائي لصور الكتابة العربية، دراسة تاريخية مقارنة بين العربية والكتابات السامية، منشورات عمادة البحث العلمي والدراسات العليا في جامعة مؤتة، ٢٠٠٠م، ماعدا مقدمة الحديث عن الحركات في الكتاب المذكور.

٦٥– هانس–بيتر مارتين وهارالد شومان، فخ العولمة، الاعتداء على الديموقراطية والرفاهية ترجمة عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، ع٢٣٨، ١٩٩٨.

٦٦– الشيرازي، نصيب المسلمين من العولمة، بحث من جزأين منشور على شبكة الإنترنت، وانظر كريم أبو حلاوة، الآثار الثقافية للعولمة، خطوط الخصوصيات الثقافية في بناء عولمة بديلة، عالم الفكر، م٢٩، ع٣، ٢٠٠٢، ص١٩٩، وقد ألقى الدكتور محمد المريسي محاضرة تحمل مثل هذه المضامين بدعوة من جامعة مؤتة في عام ٢٠٠١.

المصادر والمراجـــع

١- المراجع باللغة العربية

- آمنة الزعبي، التغيُّر التاريخي للأصوات في اللغة العربية واللغات السامية، رسالة دكتـــوراه، الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠٠١.
- خزعل الماجدي، الآلهة الكنعانية، دار أزمنة، عمان، ١٩٩٩.
- رمزي البعلبكي، الكتابة العربية والسامية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١.
- رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٣.
- رمضان عبد التواب، في قواعد الساميات، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥.
- رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغـــويّ، مكتبـــة الخـــانجي، القاهرة، ١٩٨٧.
- زايجموند باومن، العولمة، الآثار البشرية، عرض وتقديم شفيقة مستكي، عالم الفكر، م ٢٨، ع٣، ٢٠٠٠.
- سامي سعيد الأحمد، المدخل إلى تاريخ اللغات الجزرية، منشورات اتحاد المؤرخين العـــرب، بغداد، ١٩٨١.
- سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعرفة، بيروت، (د.ت) نسخة مـــصورة عن طبعة دار الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- شاكر لعيبي، تهافت اللغـــــة العربية على شبكة الإنتر نت، مقال منشور علـــى شـــبكة الإنتر نت.
- الشيرازي، نصيب المسلمين من العولمة، بحث منشور على شبكة الإنترنت.
- طالب عبد الرحمن، نحو تقويم جديد للكتابة العربية، كتاب الأمة، ع٦٩، ١٩٩٩.
- علي الدين هلال، النظام الدولي الجديد، الواقع الراهن، واحتمالات المستقبل، عالم الفكر، م٢٣، ع٣-٤، ١٩٩٥.

- علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، القاهرة، ١٩٦٧.
- كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، تجمه عن الألمانية رمضان عبد التواب، منشورات جامعة الرياض، الرياض، ١٩٧٧.
- كريم أبو حلاوة، الآثار الثقافية والعولمة، خطوط الخصوصيات الثقافية في بناء عولمة بديلة، عالم الفكر، م٢٩، ع٣، ٢٠٠٢.
- كوثر البشراوي، برنامج إشراقات، منشور على موقع الجزيرة (محطة فضائية) على شبكة الانتنرنت.
- لطفي الخوري، معجم الأساطير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠.
- ناصيف حتي، أي هيكل للنظام الدولي الجديد؟ عالم الفكر، م ٢٣، ع٣–٤.
- هانس بيتر مارتن وهارالد شومان، فخ العولمة، الاعتداء على الديموقراطية والرفاهية ترجمة عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، ع٢٣٨، ١٩٩٨.
- ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت، ١٩٨٠.
- يحيى عبابنة، اللغة النبطية، دراسة صوتية صرفية دلالية مقارنة، دار الشروق، عمان، ٢٠٠٢.
- يحيى عبابنة، التطور السيميائي لصور الكتابة العربية، دراسة تاريخية مقارنة بين العربية والكتابات السامية، ، منشورات عمادة البحث العلمي في جامعة مؤتة، الأردن، ٢٠٠٠.
- يحيى عبابنة، لماذا يستهدف الغرب لغة العرب، بحث منشور على شبكة الإنتر نت، موقع صحيفة الوطن القطرية.

٢– المراجع باللغات غير العربية

1- **Brockelmann, C., Lexicon Syriacum, Halis Saxonum, 1928.**
2- **Cantineua, J., Le Nabateen, Notion, Generales, Ecriture, Grammaire, Osnabruck, 1970.**
3- **Costaz, L., Syriac English Dictionary, Imprimie Catholique, Berouth, 1980.**
4- **Harris, Z., A Grammar, of the Phoenician Language, American Oriental Society, New Haven, Connecticut, 1936, Reprinted 1952.**

5- **Hoftijzer & Jongeling, Dictionary of the North-West Semitic Inscriptions, E.J. Brill, Lieden, New York, Koln, 1955.**
6- **JA, Series11, VOL.7 (1970)465.**
7- **Jean & Hoftijzer, Dictionaire Des Inscriptions De L'ouest, (DISO) E.J. Leiden, 1965.**
8- **Moscati, S., An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages, Phonology & Morphology, 2nd Edition, Wiesbaden, 1969.**
9- **Moritz, Der Sinaicult in Heidnischer, Zeit, 1970.**
10- **Payne Smith, A Compendious Syriac Dictionary,Clarendon Press, Oxford, 1985.**
11- **Slouszch, Otzar Hakkitobot Happiniqiyot, Thesaurus of Phoenician Inscriptions, 1955.**
12- **Tomback, A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician & Punic Languages, USA, 1985.**

٣- النقوش القديمة:

1- **Bar Rakb Inscription.**
2- **Dali (II) Inscription.**
3- **Kilamu Inscription.**
4- **Labithos Inscription.**
5- **Rohdos Inscription.**
6- **Skiroko Inscription.**
7- **Yahumalik Inscription.**
8- **Umm el-Awamid Inscription.**